بيد أنه كان قد توقّف عن الرسم ووضع فرشاته خلف أُذُنه. وترجّل صديقه ودنا لسماعه متوارياً بالإجمال خلف سَرْوَةٍ فتيّة. وإذ لم يبدُ على «ماني» أنه لاحظ وجوده فقد تابع خطابه:

. . . . في بدء الكون وُجد عالمان منفصلان الواحد عن الآخر: عالم «النور» وعالم «الظُلُمات». وفي «حدائق النور» كانت جميع الأشياء المشتهاة، وفي الظُلُمات كانت تقيم الشهوة، شهوة عارمة ملحّة هدّارة. وبغتة حدثت صدمة عند حدود العالمين، أعنف صدمة عرفها الكون وأشدُّها هَوْلاً. وعندئذٍ اختلطت جُزيئات «النور» بـ «الظُلُمات» بألف شكل مختلف، وهكذا ظهرت جميع المخلوقات، الأجرام السماوية والمياه، والطبيعة والإنسان. . .

توقّف كلامه وكأنه يسعى إلى التنفُّس. ثم انساب من جديد.

- في كل كائن وفي كل شيء على السواء تتعايش «الظلمات» و«النور» وتتشابك. فلُبّ الثمرة التي تخضمونها يُغذّي جسدكم، بيد أن مذاقها الطيّب وعطرها ولونها تغذّي نفسكم. و«النور» الكائن فيكم يتغذّى بالجمال والمعرفة ففكّروا بتغذيته من غير انقطاع، ولا تكتفوا بإتخام الجسد. وحواسّكم منذورة لتلقفُّ الجمال ولمسه واستنشاقه وتذوّقه والإصغاء إليه وتأمّله. أجَل أيها الإخوة، إن حواسّكم الخمس مصافي «نور». فقدّموا إليها العطور والأنغام والألوان. وجنّبوها النتن والصرخات الجشّاء والقذارة.

وإذ كان مستمعوه ينتظرون التتمّة فقد نهض «ماني» متوكّئاً على العصا التي كان يمسك بها على الدوام، وأفسح له الجميع الطريق باحترام وهم لا يزالون متعلّقين بوجهه، وجهِ المراهق المرِح الضامر. ثم تبعوه مفتونين صامتين وكأنّ خيوطاً دقيقة تربطهم به.

لقد اطمأنّ «مالكوس» ولا ريب بشأن مخالطات صديقه، غير أن ذلك لم يبدّد مخاوفه. فبالأمس خشي أن يرى حارساً متفانياً يخلط بينه وبين أوباش الحيّ، واليوم يخشى أن يراه مُعْتَقلاً لأسباب أوْجَعَ وأَخْطَرَ. فلا يمكن أن يجمع